التقدم في التاريخ

مقابلة مع أ. د. ميشيل حنا متياس
ترجمة: آلاء التركيت*

العنوان الأصلي للمقال: Progress in History

بعد أن عشتَ ربيع عمرك وخريفه، وتعمقت في لغز الطبيعة الإنسانية، وتأملت لفترة من الزمن حركة الحضارة الإنسانية وتقدمها، ما أهم سؤال في حياة الإنسان حسب ما ترى؟

إنه معنى حياة الإنسان.

هل يمكنك تفصيل القول؟

بكل سرور. لماذا نحن هنا؟ وما السبب الذي وجدنا من أجله؟ فنحن لسنا المسببين لوجودنا، بل نكتشف أنفسنا في العالم في مكان ووقت معينين. فقد ولدنا خارج إرادتنا ومعرفتنا، وحياتنا سريعة الزوال، وتنحصر بين حدثين، الولادة والموت، فنحن موجودون، لكننا لسنا ملزمين بأن نوجد، فلماذا ولأي غرض وُلِدنا؟ هذا هو السؤال الأول الذي نطرحه حالما نفتح أعيننا على الحياة للمرة الأولى، وهو السؤال الأهم الذي نتصارع معه في حياتنا اليومية، وهو آخر سؤال نطرحه في آخر مراحل حياتنا.

فأول لمحة من الوعي بالذات نميزها بالفطرة، ونشعر بها كنداء خفي بداخلنا في أوج شبابنا، هي الرغبة في أن نكون ذواتنا المتفردة، وهذا ما لم نبلغه بعد. فعلى الرغم من إدراكنا لوجودنا واستقلالنا الجسدي واختلافنا عن سائر الناس، فإننا لا نعرف بعد من نحن، وما نحن. فنحن لا نأتي إلى العالم كبشر مكتملين تماماً، بل نحمل معنا قدرةً كامنةً على أن نكون بشراً، كما أننا لا نولد محامين وتجاراً ومزارعين، بل نولد بالقدرة الكامنة على أن نكون محامين وتجاراً ومزارعين. فنحن نختار ما نريد أن نكون عليه، ولدينا القدرة على اتخاذ هذا القرار والعمل به. وفي أوج شبابنا، نسمع هذا النداء الداخلي لنختار، ولعل هذا أهم قرار نتخذه في حياتنا، لأنه بمنزلة اختيار **لمن** نكون، بل **لنوع** الحياة التي

- Michael H. Matias, "Progress in History". Translated and Reprinted with Permission by NCCAL-Kuwait 2014.

* آلاء التركيت: مترجمة ومحررة في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. حاصلة على ماجستير في دراسات الترجمة من جامعة مانشستر.

سنحياها. وهذا السؤال يقع في صميم معنى حياة الإنسان: كيف يجدر بنا أن نحيا؟

وأهم سؤال يقلقنا بين الحين والآخر، ونفكر فيه ونحن على مشارف آخر مراحل حياتنا، عندما ندرك بوضوح أننا لن نكون جزءاً من شعائر الحياة الإنسانية الجميلة بعد الآن، لا سيّما عندما نشعر بقبضة الزمن تلتف حول أعناقنا، هو السؤال عن معنى الحياة الإنسانية، فتروادنا أسئلة مثل: ما المغزى من ذلك؟ هل كان الأمر يستحق هذا العناء كله؟ هل اخترت الطريق الصحيح في حياتي؟ أو أن نقول في لحظات يأس أو رضى «كانت نسمة هواء عابرة!»، «لو عشتُ حياتي من جديد، فلن أعيشها كما فعلتُ من قبل!». فعندما نتخذ مقعداً خلفياً، ونشاهد أحداث حياتنا تمر أمامنا كما نشاهد فيلماً على الشاشة، فإننا نتساءل عن معنى حياتنا، وما إن كانت جديرة بالعيش. ولا أظن أني أخطئ بقولي إن السؤال الرئيس الذي نبدأ حياتنا به، ونعيشها، ونختمها هو السؤال عن معناها.

ولكن هذا السؤال يهيمن، بشكل مباشر أو غير مباشر، على مجالات التساؤل البشري كلها، فالبشر كانوا يبحثون في طبيعة المادة والحياة والوعي، وكانوا يستكشفون طبيعة العالم عموماً منذ فجر الحضارة. لماذا؟ هل نسعى لنحيا من أجل أن نعرف، أم نسعى لنعرف من أجل أن نحيا، وأن نحيا بشكل أفضل دائماً؟ فالمعرفة، وهي ثمينة بنفسها، ليست هي الغاية، بل الوسيلة لبلوغ الغاية، والغاية هي الحياة الجيدة. وأول من أشار إلى هذا الملمح الأساسي هو سقراط في القرن الخامس قبل الميلاد، في قوله المأثور «الحياة التي لا يتأملها صاحبها ليست جديرة بالعيش»، ويعود أصلها للقول الحكيم «اعرف نفسك»! وقد أكد هذه الحكمة أهم الفلاسفة في القرون الألفين والخمسمئة التي خلت، فكما ترى، معرفة ما نحن عليه شرط أساسي لمعرفة كيف يجدر بنا أن نعيش حياتنا، لكن ما نحن؟ ما الذي يجعل الفرد منا إنساناً؟ وإن افترضنا أن الإنسان هو وحدة العقل، والجسد، والفكر، والشعور، والفعل، والحياة بإدراكها لنفسها، ويجدر بنا افتراض ذلك، سنتمكن من فهم سعي العلماء الحثيث لفهم طبيعة العالم، فكلما ازداد فهمنا لطبيعة المادة والحياة والوعي، ازدادت معرفتنا بما نحن عليه، وكلما ازدادت معرفتنا بما نحن عليه، ازدادت معرفتنا بالكيفية التي علينا أن نعيش حياتنا بها.

وفقاً لمقدار المعرفة، التي نملكها الآن عن الطبيعة الإنسانية، عن قدراتها وحاجاتها ورغباتها ودوافعها وإمكاناتها، ما الذي يجعل حياة الإنسان ذات معنى وفق ما ترى؟

أود في البداية أن أوضح أنني أعني بقولي «الحياة ذات المعنى» الحياة السليمة، والحياة السليمة هي الحياة الجديرة بالعيش، وهي الحياة التي يسعني القول عنها، قبل أن أطبق جفنيّ للمرة الأخيرة، دون الإحساس بالذنب أو الخوف، إنها «كانت تستحق هذا التعب كله». وبشكل عام، فإن معظم العلماء وعامة الناس يرون أن الحياة ذات المعنى هي

الحياة ذات الإنجاز، حياة النمو والتطور، لكن ما الذي يجعل الحياة كذلك؟ وما الذي يحقق النمو الإنساني؟

ينمو المرء كإنسان بقدر ما يحقق القدرات التي تحقق إنسانيته: المعرفة، والشعور، والإرادة، فالأولى تهدف للحكمة، والثانية للحب والجمال، والأخيرة للحرية، فكلما ازدادت كفاءتي في اتخاذ قرارات صائبة في الجانب العملي من حياتي، ازداد تقديري للجمال في الطبيعة والإنسان والفن دقةً وعمقاً، وازدادت مساهمتي في توفير الراحة للآخرين، وازداد عملي إنتاجاً، مما سيجعلني أكثر اكتمالاً، وسيجعل حياتي جديرةً بالعيش. ولا أبالغ إن قُلت إن الحياة ذات المعنى هي حياة ذات هدف، حياة بُنيت على هدف مهم. وحياة كهذه تكون كقارب ذي دفة، فالهدف هو دفة الحياة ذات المعنى، وغياب الهدف ينشأ عنه القلق، والخوف، والملل، والوحدة، وفي النهاية الاشمئزاز الشديد من النفس.

هل يمكنني أن أستنتج مما ذكرت أن نمو الإنسان وتطوره هو الخير الأسمى في حياة الإنسان؟

أجل، وإلا لما كان هو الخير الذي يجعل تحقيقه حياة الإنسان جديرة بالعيش.

وهل يمكنني أن أستنتج أن تعزيز نمو الإنسان وتطوره هو المعيار الذي يجدر بنا استخدامه لتقييم مدى أخلاقية ولا أخلاقية فعل الإنسان؟

أجل، فهو المقياس الأسمى الذي يجدر بنا استخدامه لتقييم كل ما هو خير أو شر في حياة الإنسان.

وهل يمكنني أن أستنتج كذلك أن تعزيز نمو الإنسان وتطوره هو المعيار الذي علينا استخدامه في تقييم «التقدم» في مختلف جوانب حياة الإنسان؟

أجل، فبغض النظر عن كون الإنجاز شخصياً، أو اجتماعياً، أو سياسياً، أو اقتصادياً، أو تربوياً، فإنه دليل على التقدم بقدر ما يعزز النمو تطورَ الإنسان. وعادةً عندما نتحدث عن التقدم فإننا نعني التغيّر أو الانتقال إلى حالة أفضل أو مرغوبة أكثر. لذلك، فإن أي نشاط هو مثال للتقدم بقدر ما يقدم نتيجة أفضل.

والتقدم مفهوم غائيّ (منسوب للغاية)، فكل نشاط في كل مجال من مجالات حياة الإنسان يهدف إلى غاية معينة، ومن دون هذه الغاية سيكون الحديث عن التغيير، لا عن النمو أو التطور، فالصخرة، على سبيل المثال، تتغير لكنها لا تنمو. ومن جانب آخر، يمكننا القول إن الطالب يحقق تقدماً عندما يستكمل متطلبات هذه المادة أو تلك، إذ إن المتطلبات تمثل غاية معينة، وكذلك، تحقق الشركات تقدماً عندما تبلغ الهدف الذي وضعه مديروها، فبلوغ الهدف علامة تحول من حالة راهنة إلى حالة أفضل منها.

كيف تطبق معيار نمو الإنسان وتطوره على حياة الإنسان؟

يكون التقدم في حياة الإنسان عندما يبلغ الفرد هدفه، ولا يكون ذلك بمجرد كون الفرد أماً، أو زوجاً، أو صديقاً، أو محامياً، أو مواطناً، بل كإنسان. وكإنسان لا يكون هدف المرء في الحياة مجرد المتعة، أو المال، أو الصحة، أو العلم، أو الشهرة (على الرغم من أنها عناصر أساسية في حياة الإنسان)، بل النمو في الإنسانية، وهذا يعني تحقيق الحاجات الضرورية لنمو الإنسان كلها. ولكن النمو إجراء ذو أبعاد متعددة، فنسيج الطبيعة الإنسانية يتكون من قدرات أساسية ثلاث: التفكير، والشعور، والإرادة، لذلك إن كانت حياة الفرد تقوم على موافاة متطلبات هذه القدرات، أي الحكمة، والحب، والجمال، والحرية، فإن حياة هذا الفرد تقدمية بقدر ما تنمو في خبرتها بهذه القيم الأربعة المهمة.

وإمكانية التقدم كذلك، مجرد خيال في عقل مفكر ما. وقَدَر الإنسان لن يختلف عن قَدَر الشجرة أو النحلة التي تقضي حياتها في صنع خلية النحل وإنتاج العسل.

أجل، الحرية والإبداع شرطان ضروريان للتقدم في الطبيعة والحياة الإنسانية، والقوانين الوحيدة، التي يتبعها الفنان كفنان، هي التي يضعها في أثناء نشاطه الإبداعي وفقاً للمنطق المتضمن في الهدف أو التصميم الذي يسعى إلى تحقيقه في بيئته، فما الفائدة من محاولة إصلاح مؤسسة ما إن كنتُ أعلم أنه لا يمكنني تغييرها وفقاً لفكرة ما أو خطة ما تصورتها وأبدعتها في عقلي؟ وكذلك ما الفائدة من محاولة تحسين حياتي، أو السعي إلى هدف ما، أو الأمل في تحقيق أمر مهم إن كنتُ أعلم أني لستُ سوى عجلة في آلة اجتماعية أو كونية؟

وكيف تطبق معيار نمو الإنسان وتطوره على التقدم في التاريخ؟ أود أن أعرف ما مدى استيفاء رؤيتك في التقدم في التاريخ للشروط التي يحددها المعيار.

لقد قيل الكثير وكُتب الكثير عن إمكانية التقدم في التاريخ، عمّا إذا كان ذلك عملية ضرورية أم سَبقاً إبداعياً لإمكانات مستقبلية، وما إذا كانت توجهه قوة أكبر، أم أنه حدث عابر، إذ يظن بعض العلماء أن هذا السؤال مرتبط جداً بالسؤال عن حياة الإنسان، فإن كنا نرى أن التقدم التاريخي للعالم يتبع قوانين محددة، وإن كانت هذه القوانين غير خاضعة للإرادة الإنسانية، فذلك يعني أن الحرية والإبداع كليهما،

وأرى أن فكرة التاريخ أحاطها كثير من الجدل، الشائك أحياناً، وذلك لسببين، أولهما أن الفاعل في التاريخ والهدف من التاريخ لا يمكن تحديدهما مباشرة بالطريقة نفسها التي يتم بها تحديد أمر ما متعلق بخبرتنا المباشرة. والإجراء التاريخي للعالم لا نراه بعين فكرنا كقصة ذات مقدمة ومتن وخاتمة، بل يبدو لنا كتجمّع للأحداث، لا كخليط منها، فالحضارات تبدو وكأنها تظهر على مسرح العالم من دون علاقة تربط بينها. فما العلاقة السببية، إن وُجدت، بين ظهور الحضارة المصرية القديمة وسقوطها، وحضارة الآزتيك، وحضارة الصين القديمة؟ وهل قامت تلك

الحضارات بدور محدد في تحقيق هدف نهائي؟ وإن كان الأمر كذلك، فما الهدف؟ ثم هل يقوم قادة الدول والإمبراطوريات بوضع خططهم السياسية والاجتماعية وفقاً لهدف تاريخي واضح الرؤية، أم أنهم يضعونها وفقاً لمصلحتهم «الوطنية» حسب ما تمليه عليهم حكمتهم؟ ومثل هذه الأسئلة هي السبب في ظهور تأويلات مختلفة لكل من الفاعل في التاريخ والهدف من التاريخ.

وثانيهما، أن الحضارة ليست كالأفراد أو المؤسسات، فهي منظمة مرنة دائمة التغيّر تتكوّن من جماعات تربطها أواصر اللغة، والدين، والتاريخ، والعادات، والقيم، والتقاليد، ويميّزها مستوى معيّن من التطور في العلوم، والفلسفة، والفن، والتكنولوجيا، والتعليم، ولا مركز لها، فهي ليست موضوعاً قانونياً أو سياسياً يمكن تحديده، ولذلك لا يمكن أن يكون لها هدف يمكن تمييزه. ويمكن أن يكون للدولة، كدولة، هدف ما، أما الحضارة التي تضمّها فلا يمكن أن يكون لها ذلك، فكيف يمكننا أن نتحدث عن التقدم في التاريخ إن كان يبدو أن الدول التي تتكون منها الحضارة، والحضارات نفسها، لا يربط بينها خط موحد ومستمر من التطور؟

ولكن لا يعني عدم قدرتنا على تمييز نمط للتطور في التاريخ أن هذا النمط غير موجود، ولا يعني ذلك أن حياة الإنسان لا يمكن أن يكون لها معنى أو قيمة، ولا يعني كذلك أن معنى حياة الإنسان يعتمد سببياً على وجود نمط كهذا، أي إن مسألة معنى حياة الإنسان مستقلة عن مسألة التقدم أو المعنى في التاريخ. وسأوضح هذه النقطة بمثال، فقد حُكم على سيزيف، وكل إنسان قد يكون سيزيف، أن يُدحرج صخرة عظيمة إلى أعلى الجبل، ثم يتركها لتتدحرج إلى أسفله، ثم يدحرجها إلى أعلاه مجدداً، وأن يعيد هذه العملية إلى أبد الدهر! يا لها من حياة كئيبة! ما المعنى من الاستمرار هكذا إلى الأبد؟! وعلى الرغم من ذلك، فإن سيزيف لم يُقدم على الانتحار، لماذا؟ أولاً، لأن الحياة خير مطلق، ولذلك فهي مقدسة. ثانياً، يمكن للبشر أن يكونوا الفاعلين في حياتهم، على المستوى الإنساني، إذ يمكنهم إيجاد المعنى من لا شيء، ويمكنهم تحويل ما لا معنى له إلى أمر ذي معنى.

ولكن على الرغم من أن مسألة المعنى في حياة الإنسان مستقلة عن مسألة النمط في التاريخ، فإنني أظن أنه من المنطقي القول إن التاريخ عملية تقدمية، أي إنه سَبق إبداعي نحو حالة أفضل للوجود. وإن قسّمنا تاريخ الحضارة الإنسانية إلى فترات، من باب التيسير، فيمكننا القول إن توالي هذه الفترات هو عملية تقدمية. ويختلف معدل هذا التقدم وحجمه من إقليم إلى آخر في العالم، ولكن لا أظن أني مخطئ إن قلت إن التقدم كان سمة مميزة لتاريخ الحضارة الإنسانية في الألفيات الأربعة التي خلت.

ألا ترى أن هذه النظرة للتاريخ جريئة ومتفائلة إلى حد ما؟

يعود تفاؤلي لإيمان عميق بإمكانات الطبيعة الإنسانية، فتاريخ الحضارة هو التحقيق والتوسع التدريجيان لهذه الإمكانات، فهو الصورة الأكبر والأوضح لتاريخ الطبيعة الإنسانية. وأنا على يقين أن هناك قوة أسمى، منطقية وخيّرة، هي في الأساس القوة المحركة للتاريخ، ولا يسعني الآن شرح أو حتى تأمل وجودها أو طريقة عملها في تطوير الحضارة الإنسانية، ولكن يمكنني القول إن كل عنصر في نظام الطبيعة، وكل إنجاز كبير في شتى مجالات التجربة الإنسانية يدل على وجود هذه القوة. ولستُ بحاجة لرؤية هذه القوة رؤيتي للورق الذي أكتب عليه الآن، لكن يمكنني أن أرى آثار فعلها، أعني بذلك النظام الرائع للطبيعة، وآثار فعلها شاهد موثوق على عظمة وغموض حكمتها وخيرها، بل هي شاهد على صحة الادعاء أن التقدم هو سمة أساسية للتاريخ.

وهل تبني هذا الادعاء على القول إن التقدم هو انتقال نحو حالة أسمى للوجود؟

نعم.

سبق قولك إن نمو الإنسان وتطوره هما المعيار الأسمى الذي يجدر بنا استخدامه لتقييم أي إنجاز إنساني، فهل تستخدم هذا المعيار لتقييم إمكانية التقدم في التاريخ؟ وكيف؟

أجل، نمو الإنسان وتطوره هما المعيار الأسمى الذي يجدر بنا استخدامه لتقييم أي إنجاز إنساني، فبما أن الحضارة هي موضوع التاريخ، وبما أن الممثلين الرئيسيين على مسرح الحضارة هم البشر، فذلك يعني بالضرورة أنه يجدر بنا استخدام هذا المعيار في تقييم إمكانية التقدم في التاريخ.

يبدو أنك تشير إلى تشابه بين نوعين من الموضوعات: الإنسان الفرد كموضوع، والحضارة كموضوع. وحياة الفرد مثال للتقدم بقدر ما تكون عملية لنمو الإنسان وتطوره. لكن بأي معنى تكون حياة الحضارة، أو حضارة الإنسان بحد ذاتها، مثالاً لنمو الإنسان وتطوره؟ هل يمكنك شرح كيف ينطبق هذا المعيار على نمو الحضارة وتطورها؟

هناك تشابه بين حياة الفرد وحياة الحضارة، وإن كان عاماً وغامضاً إلى حد ما، وذلك بالطبع إن افترضنا أن حياة الحضارة هي صورة أكبر وأوضح لطبيعة الإنسان. ولا أشير لهذا التشبيه إلا لأسلط الضوء على الادعاء القائل إن التاريخ عملية تقدمية. لكن لا بد لي من التصريح بأن الفروقات بينهما كثيرة وربما تفوق أوجه التشابه. ما يهمني هو أن التشبيه في هذه الحالة يبرز تلك السمات التي توضح كيف أن التاريخ سَبق إبداعي نحو حالة أسمى للوجود، إذ يعبّر الفرد عن نفسه في بُعدين أساسيين، الأول مادي بطبيعته، والثاني روحانيّ بطبيعته. والأول مركزه الجسم، وينشأ من حاجاته، والثاني مركزه العقل وينشأ من حاجاته. وكذلك تعبر الحضارة عن نفسها في بُعدين، الأول مادي بطبيعته،

والثاني روحانيّ بطبيعته. والأول مركزه مجال التكنولوجيا والاقتصاد، والثاني روحاني ومركزه مجال الثقافة، ولذلك، فإن أي حديث عن التقدم، سواء كان مرتبطاً بالفرد أم الحضارة، يجب أن يتناول التغيير للأفضل في المجالات المادية بالإضافة إلى المجالات الروحانية من حياة الإنسان، وإلا سيكون متحيّزاً، وبالتالي قاصراً.

أرجو أن تسمح لي بمقاطعتك قبل أن تسهب في شرحك، ما الذي تعنيه بـ «الثقافة»؟

أعني بها عالَم المعتقدات والقيم، كالعدالة، والحرية، والسلام، والحب، والجمال، والقداسة، والأعراف الخاصة، والرموز، والعادات، والتقاليد، والشعائر، والمراسم التي تضبط حياة الفرد في الجماعة. هذه المعتقدات والقيم هي أساس المؤسسات التي تكوّن بُنية المجتمع، وتعبّر عنها وتحفظها فلسفةُ المجتمع، وعلومه، وفنه، ودينه، وتاريخه، وطرقه الاجتماعية.

وأعرف بعض العلماء الذين يتحدثون عن التقدم المعنوي (الأخلاقي) في مقابل التقدم المادي، لكن هذا النوع من التمييز محدود جداً، لأن المعنوي بحد ذاته أحد عناصر المجال الروحاني في حياة الإنسان، الذي يضم بالإضافة إلى ذلك القيمَ الأساسية للحق، والجمال، والحكمة، والقداسة. ويمكن للمرء أن يحيا حياة معنوية (أخلاقية) دون أن يكون مهذباً (متطوراً) عقلياً، أو جمالياً، أو دينياً، أو اجتماعياً، ولكن النقطة التي أود التركيز عليها هي نمو الإنسان، أي نمو الفرد كله كإنسان، فنحن ننمو ونتطور في إنسانيتنا بقدر ما نحقق الإمكانات كلها الكامنة في طبيعتنا الإنسانية، أي عندما نثري خبرتنا في الجميل، والرفيع، والحق، والمقدس، والخيّر، وعندما نشعر أن حقيقة هذه القيم تملأ وجداننا كله.

ماذا عن القيم المادية؟

تنشأ هذه القيم من حاجات الجسد أو اهتماماته، ومنها على سبيل المثال، الصحة، والجنس، واللذة، والأمان، والراحة، وسبل الحصول عليها وعلى القيم المرتبطة بها هي المال، وهو مركز اهتمام الاقتصاد، والآلات أو الأدوات، وهي مركز اهتمام التكنولوجيا. وكما أن الجسد البشري شرط أساسي لوجود العقل، فالناس ليسوا كائنات روحية، فإن تحقيق القيم المادية شرط أساسي لنمو الإنسان وتطوره، فلا يمكننا الاستمتاع بمنظر غروب جميل، أو تأمل المنظر نفسه فلسفياً حين تكون المعدة خاوية، أو حين نكون مرضى، أو حين نكون عرضة للخطر. ولعل الجسد شرط أساسي للنمو والتطور، لكن هذا لا يعني أنه أقل أهمية أو أقل قداسة من العقل. ففي وتيرة الحياة في العالَم لا يكون المرء عقلاً ولا جسداً، بل قطرة تجربة، أي وحدة فكر، وشعور، وفعل، فعندما تكون في خضم نقاش جاد، وعندما تستمتع بجمال معزوفة موسيقية جميلة، وعندما تنعم في أحضان حبيبك، هل تكون واعياً بوجودك كعقل أو جسد؟

دون أن نبتعد عن حديثك عن التقدم، وكذلك الشروط التي يتحقق بها، هل ترى أن تاريخ الحضارة كان يسير حتى العقد الأول من القرن الحادي والعشرين نحو مستوى أعلى من التطور؟

تاريخ الحضارة هو قصة ظهور حضارات مختلفة وسقوطها، وهي قصة شعوب واجهت تحديات في محاولاتها لتأمين سبل النجاة والتطور الروحاني. وأحياناً تزدهر منفصلةً عن بعضها، وفي أحيان أخرى كانت تفصلها عن بعضها حدود ثقافية، وجغرافية، وسياسية جامدة، ولكنها الآن بدأت تصبح أكثر تداخلاً وتضامناً.

والآن، إن ألقيت نظرة تأملية فاحصة على فسيفساء الحضارات التي تكوّن نسيج التاريخ، يمكنني القول إنها عملية تقدمية، فهل نحن، أي البشرية، أفضل حالاً مما كنا عليه قبل قرن أو في أي فترة من الألفيات الأربعة الماضية؟ نعم، وفق ما أرى، ولطالما سمعت الناس يتحدثون، لا سيّما كبار السن منهم، عن أيام زمان! أتراهم يشيرون بقولهم هذا إلى الشباب الذي فقدوه، أم عدم قدرتهم على التأقلم مع التكنولوجيا الجديدة أو نمط الحياة الجديد، أم أن الأيام الماضية كانت أكثر بساطة؟ كيف تكون الأيام الماضية أفضل إن كانت سبل البقاء على الحياة، كالسكن، والزراعة، والرعاية الطبية، ووسائل المواصلات قاصرة؟ أم كيف تكون الأيام الماضية أفضل إن كانت ظروف النمو العقلي، والسياسي، والاجتماعي، والتعليمي، والتكنولوجي قاصرة؟ وكذلك لا يمكن أن تكون البساطة مقياس الحياة الجيدة، بل يكون الإنجاز مقياسها، وهو كذلك.

ماذا لو استندنا إلى معيارك لنمو الإنسان وتطوره في تقييمنا للتقدم في التاريخ، هل ستلزم حكمك هذا؟

أجل! فإن وجهنا اهتمامنا للمؤسسات الأساسية، أي الحكومة، والفن، والعلوم، والتكنولوجيا، والفلسفة، والتعليم، والاقتصاد، التي كانت تتطور تدريجياً في السنوات الألفين والخمسمئة التي خلت في الصين، والهند، والشرق الأوسط، وأوروبا، وأمريكا، فسنتمكن بالتأكيد من ملاحظة تقدم تدريجي في المجالات المادية والروحانية في الحياة الإنسانية. وهل من حاجة لذكر التقدم واسع الانتشار في ميادين الممارسة الديموقراطية، وحقوق الإنسان، والعلوم، والتكنولوجيا، والفلسفة، والفن، والتعليم، والحرية الاجتماعية، والفرص الاقتصادية، ووسائل المواصلات، والفن المعماري، والعدالة الاجتماعية؟ وعلى الرغم من أن هذه وغيرها من أشكال التطور علامات واضحة للتقدم، فإن ما يهمني هو أن الفرصة أو الظروف أصبحت متاحة للمزيد من التقدم في كل مؤسسة وفي كل مجال من مجالات التجربة، بل في كل مكان في العالم، وفي بعض الحالات ما نحتاجه أكثر من السبل المادية هو الإرادة السياسية! فمن الممكن الآن، من حيث المبدأ، أن يقف الأفراد والمجتمعات على أقدامهم البشرية أو الروحانية، والمضي

قدماً في السعي لمثُلهم في النمو والتطور. ولا تغيب عن ذهني العقبات المادية والاجتماعية، التي تقف في طريق كثير من الأفراد والمجتمعات في محاولاتهم ليعيشوا حياة أفضل، ولكن من قال إن الحياة سهلة؟ ألا تعاني الفنانة بكل سرور لتصنع تحفتها الفنية؟ ألا تجافي العالمة النوم ليالي كثيرة لتسعى للتحقق من صحة فكرة ما أو فرضية ما؟ ألا تحرم الأم نفسها حاجات وملذات كثيرة في سبيل راحة طفلها؟ ألا تعرّض المصلحة الاجتماعية نفسها لشتى أنواع الخطر من أجل العدالة؟ يكمن جمال حياة الإنسان في كونها تحدياً، لا في كونها مثالية.

يبدو لي أن ما تقوله صحيح إلى حد بسيط. من الأنسب القول إنه، ونظراً للصورة الحالية للعالم، يبدو أن الأولوية للتقدم المادي، لا الروحاني، ويميل معظم الناس، المفكرون منهم، والقادة، والعامة، إلى قصر التقدم بحد ذاته على التقدم الاقتصادي والتكنولوجي، ويبدو أنهم يؤولون السعادة من حيث الأمان الاقتصادي واللذة، لا من حيث نمو الإنسان وتطوره. هل يمكنك تصور عدد الضحايا الأبرياء، الذين أزهق الرصاص أرواحهم، بشكل مباشر أو غير مباشر، في القرن العشرين وحده؟ هل يمكنك تصور كم من كنز ثقافي دمره الرصاص كذلك، إن لم يكن حماقة أو جهلاً؟ ما نراه فعلاً هو أن القوى الأغنى والأعظم تحاول السيطرة، اقتصادياً وعسكرياً، على الأمم الأصغر والأفقر، وبدلاً من مساعدتهم على النمو، ينهبون مواردهم الطبيعية والبشرية، وذلك باسم الحرية، والعدالة، والديموقراطية، ويسفّهون رغبتهم في التقدم وقابليتهم له ثقافياً وتقنياً، فهل الغريزة الأوليّة في الطبيعة الإنسانية هي غريزة القوة، واللذة، والبقاء، والشرف؟ هل التكنولوجيا والمال آلات لتحرير الإنسان، أم للسيطرة عليه؟ لا حاجة لي في توضيح النقطة أكثر من ذلك، لكن اسمح لي بسؤال أخير، هل تظن حقاً أن الروح الإنسانية ستكون لها الغلبة؟

لا يمكن للعالِم، ولا المؤرخ، التنبؤ بالمستقبل، ولكن يمكن لفيلسوف التاريخ تصوّر المستقبل، وليس ذلك إلا لأن أحد مهامه تصوّر الكل، أيّ أيّ جزء من العالَم، أو كليّة العالَم، ويمكنه تصوّر العالَم من حيث سببه وغايته النهائية. ولا يكون هذا التصوّر اعتباطياً أو شخصياً، بل مبنياً على المعرفة التجريبية التي يحصل عليها من العلوم المختلفة! وليست مهمته معرفة العالَم، بل تأويل معرفتنا بالعالَم، وفهم معناها وتأويله.

تفاؤلي لا دواء له، ولا يسعني أن أعطيك أي حجة في هذه المقابلة القصيرة، لكن يمكنني القول إن الروح الإنسانية ستكون لها الغلبة، وإني أرى العقبات التي تقف، وستقف، في طريقها في المستقبل القريب والبعيد. وعندما كنتُ شاباً كنتُ أظن القضاءَ على الفقر، والجهل، والكراهية، والتعصب، والعنصرية، والتعصب العرقي، والظلم، والأنانية، أمراً ممكناً في فترة حياتي. وكنتُ

جاهلاً وساذجاً. والآن، لا أرى الكون كآلة، كنظام من أحداث وقوانين، بل كلغز، كعمل فني في طور الصنع، ولا أرى الفنان بعينيّ، بل أشعر بآثار صنعه في قلبي، وأفهم المنطق من وراء عمله، ويقيني أن الروح الإنسانية ستكون لها الغلبة بناءً على هذا الفهم.

والجدير باهتمامنا الجاد ليس بالضرورة أن الروح الإنسانية ستكون لها الغلبة في المستقبل المنظور أو في المستقبل البعيد، لأنها بدأت بالفعل بالتقدم في طريقها إلى مستويات أعلى من التطور تدريجياً وببطء وحكمة، بل إنها مرنة، ومَعين رؤية ونشاط إبداعيين لا ينضب. وسيُخطئ البشر كثيراً، وسيتخبطون كثيراً، وسيرتكبون حماقات كثيرة قبل أن يدركوا أن حياة الإنسان مقدسة، وأن السعادة لا تأتي من التملك، بل من كوننا الأفراد الذين يجدر بنا أن نكونهم، وأن احترام البيئة واجب أخلاقي، وأن الناس جميعهم يجمعهم جوهر واحد، جوهر الإنسان، وأن التعاون، لا الفُرقة والحرب، هو الطريق الأسمى لحياة أفضل للجميع. وطبيعة الإنسان قابلة للتعلم! وسر تقدم الإنسان، وفق ما أرى، يكمن في التعليم، في الحب، في فهم أن العالم الذي نحيا فيه ليس لعبة صنعها جاهل، بل هي من صنع قوة حكيمة وحنونة.

على الرغم من فهمي العام الآن لنظرتك في التقدم في التاريخ، أوّد أن أستكشف بتفصيل أكثر الافتراضات وبعض الأفكار الرئيسة لنظرتك في التقدم في التاريخ، فهل من الممكن أن نجري معك مقابلة أخرى في المستقبل القريب؟

بكل سرور.